الفصل التَّاسع

ماهيَّة النُّزوعيَّة

obeikandl.com

إذا نظرنا إلى شيء ما على أنَّه بدائيٌّ فهذا لا يقدِّم أيَّ معلومة جوهريَّة حول الموضوع، وفي هذا الصَّدد، فالبدائيَّة ليست سوى نظرية معلوماتيَّة؛ لنفترض أنَّنا تعاملنا مع شيئَيْن مختلفين - كالسَّببيَّة، وشيء آخر، مثلًا - على أنهما بدائيَّان، فالسؤال المطروح هنا: ما الفرق بين هذَيْن الشيئَيْن من جهة، والفرق بينهما وبين الأشياء البدائيَّة الأخرى من جهة أخرى؟

من المُجدي أنْ نقدِّم معلومات إضافيَّة حول طبيعة السَّببيَّة؛ لأنّه يتعيَّن على البدائيِّ أنْ يقدِّم نظريَّةً حول السَّببيَّة؛ وذلك بأنْ يُحدِّد عددًا من الأمور الجوهريَّة بخصوصها؛ لكي يميِّزها عن الظواهر الأخرى، وإنْ لم تكن معرَّفة تمامًا.

يعتقد النزوعيُّ - وهو من يؤمن بالنزوعيَّة - بأنَّ السَّببيَّة في الطبيعة نزوعيَّة في جوهرها، وأنَّ إنتاجها يتم بفعل القوى السَّببيَّة، لكنَّ هذه القوى لا يمكنها

الحـدُّ مـن السَّـببيَّة؛ فمفهومـا: السـبب، والقـوة متقاربـان جـدًّا، ومفهـوم القوة السَّـببيَّة يحمل في طيَّاته إشـارة إلى ذلك، ومن ثمَّ فهو ليسـ في موضع يسـاعدنا على إصدار تعريف غير دائريٍّ للسَّـببيَّة. إذًا ، ما هي نظريَّة النزوعيِّ بخصوص السَّببيَّة؟

نظريةٌ مُحْكَمة

في اسـتجابةٍ لنظريَّـة الانتظـام، ثمَّـة فكـرة أخَّاذة تشـير إلى أنَّـه لا ينبغي لما يحـدث في أزمنـة وأماكن أخـرى أنْ يكون على صلة بعمليَّة سـببيَّة معيَّنة؛ فعندما يُذيـب الماءُ السُّـكر، وتبثُّ الشمس الـدفءَ في جُنبات الغرفـة، وعندما يقع ضرر ما... إلخ، فالتفاصيل التي نحتاجها لمعاينة الحالة هي تلك التي سمَّيناها فقط، وقـد تتضمَّـن وجهة النظر هـذه حالة سـببيَّةً معيَّنةً بصرف النظـر عمَّا إذا وجد انتظام أو لا، وتنبغي الإشارة هنا إلى أنَّ الانتظامات يجب أنْ يُنظَر إليها على أنّها حالات سببيَّة عدَّة مُفرَدة، أو مُجتمِعة مع بعضها.

تقوم النزوعيَّة على هذا الحدس الإفرادي؛ بمعنى أنَّ الأجسام المُفرَدة يمكن أنْ تحتوي ضِمْنًا على صفات نزوعيَّة خاصَّة بها، أو قوًى سـببيَّة، وفق ما يُسـمِّيها بعض العلماء، وتكون هذه القوى مسؤولة عن أي تأثيرات تحصل في هذه الأجسام.

وقد تكون الصِّفات النزوعيَّة غير بادية، ولا ظاهرة في الشـيء؛ فعندما يكون لدينا جسـم كروي نعدُّ هذه الخاصيَّة الكرويَّة ظاهرة على الدوام، وهذا ما نعنيه بقولنـا (**ظاهـر**)، لكنْ عندما يكون لدينا شـيء هشٌّ، أو مـرن، أو قابل للذوبان، فهذه صفات خفيَّة، وكامنة في هذا الشـيء تجعله ينزع للتصرُّف بطريقة معيَّنة؛ فالجسم الهشُّ يملك قابليَّة للكسر على سبيل المثال.

غالبًا ما يشير النزوعيُّون إلى وجود العديد من الخصائص الأخرى لهذه الطبيعة؛ فإذا أخذنا خصائص الاستدارة، والشُّحنة، والكتلة مثلًا، وهي بعض الخصائص الأساسيَّة للجُسيّمات دون الذريَّة، فيمكن أنْ ندركَ أنَّ هذه الخصائص جميعها تشكِّل طبيعة الجُسيّمات التي تدفعها للقيام بسلوك معيَّن؛ فمن طبيعة الجُسيم ذي الشحنة السَّالبة الانجذاب إلى جُسيم ذي شحنة موجبة، والتنافر مع الجُسيّمات ذات الشحنة السَّالبة، إضافة إلى وجود مستويات للشحنة؛ بمعنى أنّه يمكن للجُسيم أنْ يتنافر أو يتجاذب بمستويات متفاوتة، ويمكن أنْ يكون للقوة السَّببيَّة الكلمة الفيْصل في النتيجة النهائيَّة، وهي نقطة غالبًا ما نتجاهلها عندما نُحجِّم مفهوم السَّببيَّة، فنتعامل معها على أساس أنَّها كلّ شيء أو لا شيء.

يعتقد بعض العلماء أنّ الخصائص جميعها هي طبائع جوهريَّة في الطبيعة، وتسمَّى وجهة النظر هذه **بالطبائعيَّة** (pandispositionalism): فإذا أخذنا جسمًا يمتلك خاصيَّة الكرويَّة مثلًا، نلاحظ أنَّ هذا الجسم سيميل للتصرُّف بطريقة معينة، كأنْ يتدحرج على المنحدر على سبيل المثال.

ليست الطبائعيَّة هي الصيغة الوحيدة للنزوعيَّة، فقد يعتقد بعض العلماء أنَّ بعض الخصائص لا كلها هي نزوعيَّة، أو ذات قوة سببيَّة، لكنْ ما يميِّز شخصًا ما بأنَّه نزوعيٌّ حقيقيٌّ هو اعتقاده أنَّ الخصائص النزوعيَّة هي حقيقة غير قابلة للاختزال، إضافة إلى أنَّ هذه الخصائص هي التي تحدِّد سلوك الأجسام التي تحملها؛ فيُفَسَّرُ سلوك شيء ما كتجلٍّ لإحدى نزوعاته، ويبدو هنا جليًّا ارتباط هذه الفكرة بالسَّببيَّة؛ فالسلوك الذي تسلكه هذه النزوعات يمثل في نهاية المطاف المُنتَج السَّببيَّ؛ لذلك يدعوها كثير من العلماء بالقوى السَّببيَّة، وهذا المصطلح يشير إلى الدور السَّببيِّ لهذه القوى.

إنّ الطبائعيَّـة فكـرةٌ قديمـة، وربَّمـا تكـون أول نظريَّة سـببيَّة، وهـي تعود إلى حقبـة أرسـطو ومـن ثـمَّ انتقلت علـى مرِّ العصـور الوسـطى عن طريق القدِّيس تومـا الأكوينـي (St Thomas Aquinas، 1225–74). وقد قدَّم لنا هيوم منحًى جديدًا في التعاطي مع السَّببيَّة، رافضًا وجهة النظر القائلة بوجود القوى السَّببيَّة لصالح نظريَّة سببيَّة قائمة على الانتظام.

اسـتمر رفـض التجريبيـين لفكـرة القوى السَّـببيَّة حتـى أصبح ذلـك تقليدًا، ونجد ذلك عند الوضعيِّين المنطقيِّين من أمثال: جون سـتيوارت، وراسـل، وكوين، ولويـس. لقد كان هؤلاءِ الفلاسـفةُ متشـككين بحقيقة القوى الطبيعيَّة الكامنة في السَّـببيَّة، واستبعدوا هذه القوى من حساباتهم؛ فحوَّلوها إلى خصائص عرَضيَّة أو مطلقـة، مـا يعنـي أنَّهـا ليسـت نزوعيَّـة، وبمـا أنَّ هـذه الخصائص تفتقـر إلى القوى السَّببيَّة، فلم يتمكَّنوا من تقديم قاعدة وجوديَّة للسَّببيَّة، محفِّزين المشروع التجريبيَّ على تحليل السَّببيَّة بمصطلحات أخرى.

شـهدت العقـود الأخـيرة إقبالاً على مقاربة أرسـطو الجديدة للسَّـببيَّة، وهذا لم يكـن بفضـل الفلاسـفة العظمـاء، بـل لأنَّ فكـرة النزوعيَّة هي الطريقـة المُثلى لفهم السَّـببيَّة سـواء في العلم، أو في النظريَّات الميتافيزيقيَّة المعاصرة، فالنظرة الانتظاميَّـة والميكانيكيَّـة للعـالم لا تقـدِّم التفسـير الأفضـل لمـا نعرفـه بخصوص السَّببيَّة علميًّا وميتافيزيقيًّا وفقًا لوجهات النظر الجديدة هذه.

معالجة تقنيَّة

تبـدو الخصائـص النزوعيَّـة جوهريَّـةً في العلـم؛ فهـي تسـاعد علـى تقـديم التفسـيرات والتوقعـات، والتطبيقـات التقنيَّـة، إذْ يمكننـا تفسـير سـلوك بعض الجُسـيْمات، أو نوع معيَّن من الأشـياء بعد اكتشـافنا نزعاتها السُّلوكيَّة، فنستطيع أنْ نفهـم لمـاذا يلتصـق شـيئان ببعضهمـا، وعندمـا نتعـرَّف قـوى التجـاذب فيما

بينهما، نتوقَّع الاحتمالات الممكنة للمسلكيّات، والتصرُّفات التي قد يقومان بها في ظروف جديدة.

في مُنشأة هندسيَّة هائلة كالجسر مثلًا، يجب على المهندس الإنشائيِّ أنْ يأخذ في الحُسْبان القوى السَّببيَّة للعناصر الرئيسة، مثل: العوارض، والمسامير، والركائز المتينة، وأسلاك التعليق، ويتعيَّن عليه أنْ يعرف بصورة دقيقة مقدار الوزن الذي يمكن لكل جزء أنْ يتحمَّله، وهذه خاصيَّة نزوعيَّة غير مرئيَّة. وعلى فرض أنَّ المهندسين قدَّروها بصورة صحيحة، فسيضعون بعد ذلك كلًّا من هذه الأجزاء في مكانها المناسب، ومن ثمَّ عليهم التحقق من قدرتها على تحمُّل هذه القوى.

يفسِّر النزوعيُّ الثورة المعرفيَّة أو التطبيقيَّة بأنّها إطلاق النزعات المخفيَّة، واستعمالها، والإفادة منها؛ فعلى سبيل المثال: عندما اكتُشف النفط الأسود اللزج لأوَّل مرَّة، لم يعرف أحد بأنَّه يحتوي على العديد من النزعات المختلفة التي يمكن الاستفادة منه وفقها؛ فهل عرف أجدادنا أنَّه قابل للاشتعال؟ أو أنَّه قابل للتكرير لإنتاج الوقود الذي نستعمله في تسيير وسائط النقل المختلفة؟ وهل عرفوا أنَّه بالإمكان الاستفادة منه في صناعة اللدائن؟ ربما توجد إمكانات محتملة أخرى لم نتعرَّفها بعد، أو ربَّما توجد إمكانيَّة للقيام بهذه الأمور باستعمال مصدر صديق للبيئة يمتاز بأنَّه أكثر نظافة ، ويكون متوافرًا بكلفٍ زهيدة.

إنَّ الاكتشاف العلميَّ هو إيجاد الظروف الصَّحيحة لتحرير القوى السَّببيَّة، فمن كان يعلم أنَّ بكتيريا البنسلين يمكن أنْ تشكل علاجًا للعديد من الأمراض، أو أنه قد يوجد شيء بسيط، ومتوافر بكثرة وسيسهم في معالجة السرطان، وتمضي المحاولة قُدمًا يحرِّكها الشغف الجارف بمتعة الاكتشاف؛ فالعلم يتقدَّم من خلال اكتشاف قوًى جديدة للأشياء.

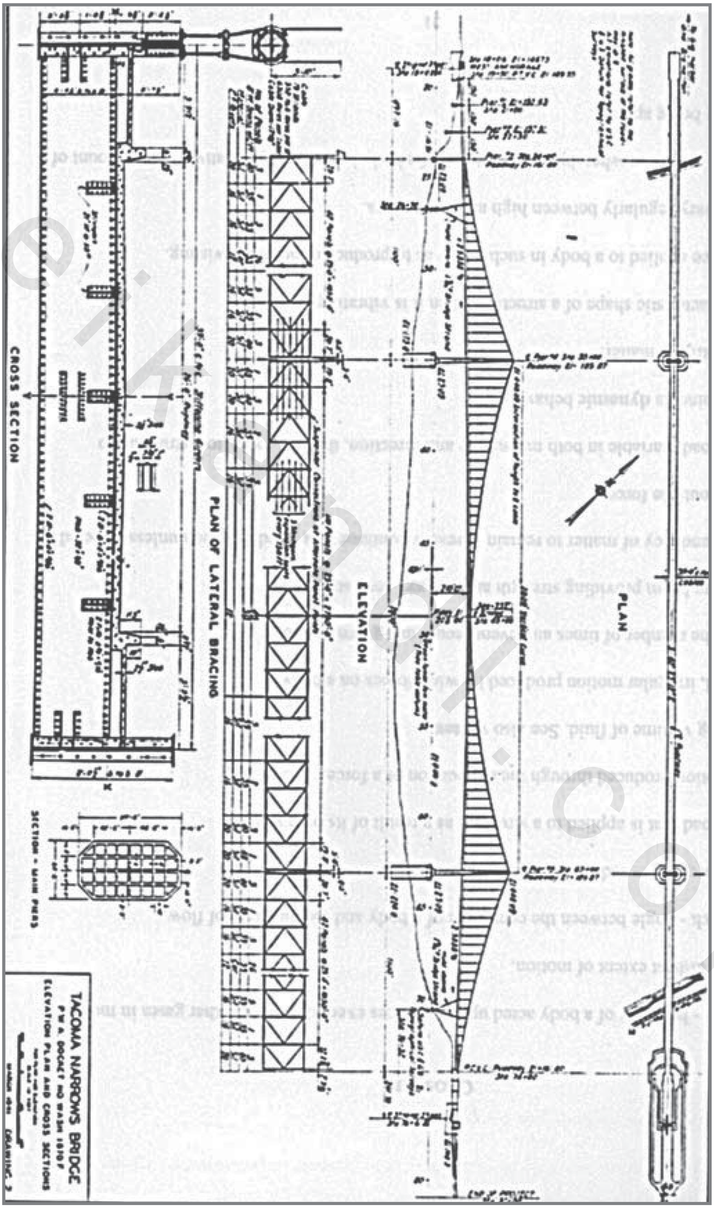

المهندسون يعرفون قدراتهم

obeikandi.com

افتراضات هيوم

إنَّ أحد الانتقادات الشائعة للنظرة الانتظاميَّة هو اعتقادنا غالبًا بوجوب إضافة شيء ما أكثر قوَّة للانتظام؛ ونعني بذلك اتصالًا سببيًّا حقيقيًّا يستبعد أنْ تكون الترابطات العرضيَّة حالات سببيَّة حقيقيَّة، وقد تُعزَّز هذه الفكرة بفكرة أخرى، وهي أنَّ السَّببيَّة يجب أن تكون ترابطًا مستمرًّا إضافة إلى مكوِّن آخر.

لكنْ يوجد اتجاهٌ فكريٌّ يمضي قدمًا في اتجاه مغاير، فعلى ما يبدو توجد حالات عديدة نعتقد بوجود اتصال سببيٍّ فيها -ولا نشكُّ في ذلك- مع أنّه لا يوجد ترابط مستمرٌّ فيها؛ فعلى سبيل المثال: مع أنَّ كلَّ شخص يعتقد بوجود سببيَّة بين التدخين ومرض السَّرطان، فلا يُصاب كلُّ مدخِّن بالسِّرطان.

إذا اعتُمِدَ الترابط المستمرُّ شرطًا ضروريًّا لإنشاء اتصال سببيٍّ، فسيعطينا ذلك نتيجة غير صحيحة، وعندها يمكننا تسمية ذلك بمُغالطة ثبات السَّببيَّة؛ فعلى سبيل المثال: إذا كنتَ تعرف عجوزًا يدخِّن طوال حياته دون أنْ يُصاب بالسَّرطان، فسيكون من غير الصَّواب أنْ تعتقد أنَّ التدخين لا يُسبِّب السرطان، وفي ضوء ذلك، ما الذي تحقِّقه السَّببيَّة إنْ لم تكن بحاجة إلى انتظامٍ دائمٍ؟

مراجعة ضروريَّة

تبدو الضرورة عنصرًا قويًّا جدًّا بالنسبة إلى السَّببيَّة، فهي ممكنة، وقابلة للتصوُّر على ما يبدو، وقد يُعاقُ أيُّ سبب بإضافة عامل إضافي، حيث تتقاطع العوامل السَّببيَّة مع بعضها في عالمنا الفوضوي، وتُبعِد عن طريقها ما يمكن أنْ يحدث خلاف ذلك، لنجد هنا المنع والتدخل.

وقد وظّفت هذه الفكرة في النقاش بخصوص السَّبب والنتيجة عندما لا تستلزم الأسباب آثارها، وقد كانت حُجَّةً استعملها هيوم نفسه في محاربة فكرة

القوى السَّببيَّة، لكننا نرى أنَّ هذه الحُجَّة تستبعد القوى السَّببيَّة تلقائيًّا الآن، فهذه القوى ستعمل فقط إذا أنتجت النزعات آثارها من خلال وجوبها، وقد فكَّر إسبينوزا بهذه الطريقة، هذا العالم الذي قد يكون هدفًا لهيوم في مراجعاته لفكرة السَّببيَّة، ومن نافلة القول الإشارة إلى أنَّ أرسطو وتوما الأكويني قد فكَّرا بطريقة مختلفة؛ فقد قالا بميل القوة فقط إلى الظهور.

المشكلة هي أنَّ هيوم قدم لنا خيارَيْن محدَّدَيْن: إمَّا الضَّرورة المطلقة، وإمَّا نظرته القائمة على الاحتمال المحض، وكان من السَّهل عليه أن يقول: إنَّ الضَّرورة غير معقولة في العمليات السَّببيَّة الطبيعيَّة، وقد تكون جميعها خاضعة للتدخل، لكن رفض هذه النظرة لا يعني أنَّ الأحداث كلها مُستقلة ومنفصلة كما يعتقد هيوم، وأنَّه يمكن لأيِّ شيء من حيث المبدأ أنْ يتبع أيَّ شيء آخر.

الخيار الثالث الذي لا يُقيم له هيوم وزْنًا هو ميول السَّببيَّة، أو نزعتها تجاه آثارها، فلا شكَّ بوجود ضرورة محدودة ولكن أكثر بكثير من الصُّدفة المحضة، ولا ينبغي لنا القول عن أيِّ نتيجة ممكنة إنَّها محتملة الحدوث، وإنَّما يوجد ميْل واضح إلى نتيجة محددة على وجه الخصوص.

مع الميول وتدخلاتها المحتملة، يمكننا رؤية كمِّ الأحداث الهائلة التي ينبغي ألا تكوِّن ترابطًا مستمرًا بين الأسباب والآثار؛ فالتدخين يمكن أنْ يكون سببًا للسرطان، وذلك يعني بالنسبة إلى النزوعي أنَّ قوَّة سببيَّة حقيقيَّة تسعى بهذا الاتجاه، لكنَّ هذه القوَّة هي ميل باتجاه السَّرطان فقط.

ما ينطوي عليه الأمر هو أنَّ عددًا من المدخِّنين ظهر عندهم ميل للإصابة بالسَّرطان، لكن يوجد آخرون يستفيدون من غياب العوامل التي ساعدت على وقوع التأثير المُسَرْطِن، ووجود عوامل أخرى أعاقت هذا التأثير. من المعروف عن مرض السَّرطان أنَّه من أكثر الظواهر السَّببيَّة تعقيدًا مع أنَّ الوقاية منه ممكنة،

وإمكانيّـة التدخـل الطبِّـي في كلِّ مرحلة مـن مراحله قائمة، إضافـة إلى أنَّ بعض الأشخاص قد يمتلكون ميلًا جينيًّا مقاومًا للسرطان.

توجـد طريقـة أخـرى لفهم هذه النقطة، وهـي أنْ نفكِّر بالنزوعـات على أنَّها تسلسـل عـالي الحساسـية، وقـد تتنـوَّع الظـروف المحيطة بالقـوَّة بعض الشـيء، الأمـر الـذي يمكن أنْ يكون له تأثيرٌ كبيرٌ في الكيفيَّة التي تتجلَّى بها هذه القوَّة إنْ كانـت سـتظهر في الأسـاس؛ أما المثال الجيـد على هذا، فهو الزجاج الهشُّ الذي قد يبقى سـليمًا عند سـقوطه، ولكن إذا غيَّرنا الظروف بعض الشـيء فقد يتناثر إلـى أجزاء كثيرة. وعليه، يمكن لتغيير بسـيط في الظـروف أنْ ينتج منه اختلاف كبير في النتيجة؛ فيمكن لعامل إضافي واحد أنْ يصنع الفرق بين أنْ يصاب المرء بالسَّرطان، أو لا.

الطَّبيعة والضَّرورة

قـد يحـاول النزوعيُّ عنـد بلوغ هذه النقطـة أنْ يقلب مفهوم هيوم رأسًـا على عقـب. لقـد أصرَّ علـى أنَّ الانتظام والترابط المسـتمرَّ ضروريان لفكرة السَّـببيَّة، وكان القلـق باديًـا بأنَّنا ما زلنا بحاجة إلى شـيء ما. يمكـن للنزوعيِّ القول إنّنا لا نحتاج إلى الترابط المسـتمرِّ، وبالمقابل فالترابط المسـتمرُّ - الذي لا غنًى عنه - قد يُعدُّ مبرِّرًا للقول إنّنا لا نحتاج إلى السَّببيَّة.

هـل تتحـوَّل بعض الترابطـات المسـتمِّرة الشـهيرة إلـى حـالات مـن السَّـبب والأثـر؟ مثـلًا، الحيتان جميعها هي مـن الثدييَّات، لكن هذا الأمر مجرَّد مسـألة تصنيف؛ فنحن من وضعنا الحيتان في مجموعة، وصنَّفناها على أنّها من فصيلة الثدييَّـات، أو أنَّ الطبيعـة صنَّفتهـا في تلـك المجموعـة مـن أجلنـا كما يقـول أتباع التوجُّـه الجوهـريِّ (essentialist). يُعدُّ هذا انتظامًا لأنّها مسـألة ضرورة؛ فلا يمكـن لمخلـوق ما أنْ يكون حوتًا دون أنْ يكـون ثدييًّا، ولكن ألا يوضِّح هذا أيضًا أنَّ

هذه الحالة ليست سببيَّة؟ فكون الحوت حوتًا لا يتسبَّب في أن يكون ثدييًّا، الأمر ببساطة أنَّ الحيتان هي فرع من فصيلة الثدييّات.

حالة أخرى للترابط المستمر لا تنطوي أيضًا على سببيَّة: يعتقد بعضهم بوجود متطابقات في الطبيعة، كتلك التي بين ملح الطعام، وكلور الصوديوم (NaCl)، أو بين متلازمة داون، ووجود كروموزوم (21) بصورة إضافيَّة. لدينا ترابط مستمرٌّ محدَّد؛ لأنه لا يوجد لدينا شيء واحد يتسبَّب بآخر، ويحدث الترابط المستمر؛ لأنَّ لدينا حالة واحدة نتعامل معها باسمين مختلفين.

قد يستنتج النزوعيُّ بأنَّه يتعيَّن علينا ألا نتوقع انتظامًا صرفًا من العمليات السَّببيَّة الطبيعيَّة على الإطلاق، لكن عندما نجد ترابطًا مستمرًّا، أليس هذا سببًا وجيهًا لنعتقد أنَّ لدينا حالة سببيَّة؟ هل تُنتِج القوى آثارها؟ لا يمكننا أن نعدَّ هذا الأمر من المسلَّمات، هل تنشأ هذه الآثار بصورة عفويَّة؟ لا يبدو الأمر كذلك أيضًا؛ فالآثار تُنتَج فقط عندما تكون الظروف مناسبة؛ فالسُّكر قابل للذوبان، لكن لتظهر هذه القوَّة، نحتاج إلى وضعه في الماء الأمر الذي يُحرِّر هذه القوَّة، وعلى نحو مشابه يجب أنْ يسقط الزجاج الهشُّ، أو يُضْرَب قبل أنْ تتمكن قوَّة الهشاشة من القيام بعملها.

من الشائع الاعتقاد بوجوب تحفيز النزوعات، وعادة ما نتكلم عن شروط محفِّزة، ويمكن أنْ نفهم ظهور الحدث على أنّه استجابة؛ فمثلًا: الفحم مادَّة قابلة للاشتعال، لكن يجب إشعالها لكي تظهر قابليَّتها للاشتعال. وعليه، يُمكن فهم عملية الإشعال على أنَّها تحفيز يسمح لقابليَّة الاشتعال بأنْ تظهر، ومن ثمَّ يتبع ذلك عمليَّة الاحتراق. لقد ساد الاعتقاد زمنًا طويلًا بأنّه لا بدَّ من تفعيل التصرُّفات جميعها بتحفيز الظروف المتعلقة بها.

ولكن يعتقد بعض النزوعيِّين بوجود طرحٍ غير صحيح في هذا الشرح، ويفضل تشارلي مارتين بدلًا من ذلك التفكير بالتصرُّفات على أنّها تشكل مظاهر مشتركة؛ فهي تعمل بوصفها فريقًا واحدًا- أحيانًا على هيئة أزواج، وأحيانًا بوصفها مجموعة كبرى- لتُنتج مع بعضها ما لا يمكن أنْ ينتجه واحدٌ منها وحده.

بدلًا من التفكير بالذَّوبان على أنّه نزوع يُحفَّز بإضافة الماء، يجب أنْ نفكِّر بالسُّكر والماء بوصفهما شريكين في عملية الذوبان؛ لإنتاج المحلول ذي المذاق الحلو. تكمن مشكلة ما يُسمَّى بثنائيَّة التحفيز والاستجابة في قولنا: إنَّ النزوعات سلبيّةٌ في جوهرها ؛ أيْ إنّها غير قادرة على القيام بأيِّ شيء ما لم يأتِ شيء آخر، ويجعلها تعمل. لا يُفترض بهذه الفكرة أنْ تكون مثيرة لاهتمام النزوعي الذي يحاول تقديم نظرة أكثر فاعليَّة حول الطبيعة؛ فالنزوعيُّ هنا يمتاز بالسَّلبيَّة، ويكون منفعلًا عندما يكون التحفيز نشِطًا، ومن ثمَّ يبدو التحفيز أكثر قوَّة من النزوع نفسه، وهذه بالتأكيد فكرة ملتبسة.

إنَّ النموذج التشاركيَّ في إظهار الميول يجعل مجموعات القوى أكثر تكافؤًا، أو أقلَّ تكافؤًا مع الشركاء في السَّببيَّة، فهذه القوى جميعها تُضيف شيئًا ما، وتخضع للتغيير الحاصل نتيجة ذلك؛ فعندما يُذوَّب السُّكر في الماء يتعرَّض للتغيير، لكنَّ الماء يصبح حلو المذاق، ليبدو مرتبطًا بالسُّكَّر بهذه الطريقة. وعلى نحو مماثل، فإنَّ مكعب الجليد يذوب، لكنَّه يُبرِّد السَّائل أيضًا، وبذلك نحصل على تغيُّرات متبادلة في شركاء المظهر المتبادل عندما يبدأ سلوكهم معًا عمليَّة سببيَّة طبيعيَّة قد تأخذ وقتًا حتى تتطور، وربما تُقاطَع قبل اكتمالها، لكنَّها قادرة على إحداث تغيير في كلّ مرة.

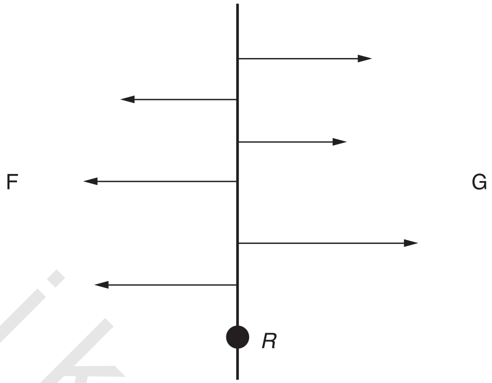

قوى في حالة من التوازن

يجب ألَّا يقتصر إنتاج القوى على التغيير، ويوجد احتمال آخر وهو أنْ تقوم هذه القوى بفعل معين دون إحداث تغيير يُذكر، ويمكن أنْ تنتج حالة توازن عن القوى التي تعمل باتجاهات مختلفة، كما في الشكل أعلاه (9ب)، لنجد أنَّ لدينا محصِّلة صفريَّة للقوى عند النقطة (R) ناتجة من الأشعة متعاكسة الاتجاه؛ ففي مثال الجسر المعلَّق، نحتاج إلى أنْ تتوازن القوى المؤثرة جميعها ليكون أثرها النهائيُّ ثبات الجسر. تشير بعض افتراضات السَّببيَّة إلى وجود علاقة بين الأحداث، كما الحال مع النظريَّات الهيوميَّة، فعندما يكون الأثر أنَّ شيئًا ما لم يحدث، فتكون لدينا هنا حالة (لا حدث). وغالبًا ما نسعى في الهندسة للوصول إلى استقرار المنشأة أكثر مما نريد حدوث تغييرات فيها.

هل يمكن أنْ نعدَّ غياب السّبب سببًا؟

تشير النزوعيَّة إلى أنَّ السَّببيَّة هي ممارسات القوى، أو النزوع الحقيقيُّ لهذه القوى، فهل يمكننا تطبيق هذه الفكرة في كل حالة؟

يوجد مثال معاكس يفترض أنْ تُحقق السَّببيَّة من خلال غيابها، فغياب الماء يقتل النباتات، وينتج من غياب الأكسجين اختناق الإنسان. إنَّ إحدى طرائق الحصول على الشيء تكون بمنع حدوثه؛ فالشخص الشِّرير يمكن أن يرى عدوَّه وهو يموت بمنعه شخصًا آخر من إعطائه جرعة العلاج لإنقاذ حياته، فهل يمكن أنْ نأخذ بالحُسْبان حالاتٍ كهذه فيما يتعلق بممارسات القوى؟

قد يقول قائل: إنَّ اللاشيء لا يمكن أنْ يكون قوَّةً مطلقًا، فهل يمكن لانعدام الماء أنْ يشكِّل قوَّةً تقتل النبات؟ هذا لا يبدو صحيحًا؛ فانعدام الماء شيء لا يذكر على الإطلاق، فكيف يمكن أنْ يكون ذلك قوَّةً سببيَّة؟ يوجد اختبار للتأكد من الحقيقة بهذا الخصوص يُدعى الاختبار الإيليائيَّ نسبة إلى الفلسفة الإيليَّة، أوالإيليائيَّة.

تقوم فكرة هذا الاختبار على التصوُّر الآتي: حتى يكون الشيء حقيقيًّا، فيجب أنْ يكون ذا قوة سببيَّة. إذا اعتمدنا هذا القول، وتبنَّينا هذه الفكرة بخصوص وجود قوَّة مؤثرة للشيء الغائب، فقد يكون علينا التعامل مع غياب الأشياء على أنَّها جزء من الواقع.

لكن توجد مقاربة من نوع آخر، فإذا منع الشرير حقن الجُرْعة التي ستنقذ حياة عدوِّه، عندئذٍ يقول النزوعيُّ: إنَّ المرض تسبَّب بالموت في حين أنَّ الدواء يمكن أنْ يُعدَّ علاجًا لهذا المريض، وقد تكون لدينا الآن حالة معاكسة إذا ما حُقِنت الجرعة؛ لأنَّها ستعمل على إنقاذ الشخص، ويمكن أنْ تكون هذه حالة مُغايرة لكنها أصبحت صحيحة من خلال القوَّة السَّببيَّة للدَّواء، لكنَّ هذا لا يُقدِّم سببًا للموت؛ فالسَّبب كان المرض، ولا مانع من أنْ نُحمِّل الشِّرير بعض المسؤوليَّة الأخلاقيَّة، أوالقانونيَّة عن الموت ما لم يُوقِف ما يمنع ذلك، ووفقًا لتصوُّر النزوعيِّ، فإنَّ حالة منع مزدوجة كهذه ليست كافية لجعلها سببيَّة.

الاتَّجاه الصَّحيح

يمكن النظر إلى النزوعيَّة على أنَّها صيغة من البدائيَّة، وقد يحاول النزوعيُّون دعم فكرة إمكانيَّة الحصول على مفهوم السَّببيَّة من خلال أجسادنا بوصفنا وكلاء، ويمكن القول: إنَّنا سنختبر بعد ذلك الطبيعة النزوعيَّة للسَّببيَّة. غالبًا ما يشعر الوكلاء بمقاومة الأفعال؛ فهم يحاولون رفع آلة الغسيل مثلًا، لكنها ثقيلة عليهم، يمكنهم أنْ يشعروا بميل أفعالهم نحو رفعها، لكنهم يشعرون أيضًا أنَّ الفعل يمكن كبْحَه بسبب وزن آلة الغسيل.

لكن من غير المحتمل أنْ يقدِّم النزوعيُّون هذه الفكرة على أنَّها تحليل للسَّببيَّة؛ فالقوى تُنتِج تجليَّاتها، والإنتاج مصطلحٌ سببيٌّ مُسْبَق، وبذلك لا يمكننا استدعاء مفهوم النزوع لدحض السَّببيَّة؛ فالممارسات النزوعيَّة تبدو وكأنَّها تتضمَّن السَّببيَّة.

ومع ذلك، فالنزوعيَّة تقدِّم لنا نظريةً ما، فهي تشير إلى سمات مُحدَّدة للظاهرة، ويمكن أنْ تنطوي السَّببيَّة على فعل أجسام منفردة بما تقتضيه خصائصها النزوعيَّة؛ إنها تنطوي على غائيَّة تجاه نتيجة محدَّدة، وهذا يوضِّح لماذا لا يكون المُنتج السَّببيُّ نفسُه ضرورةً؟ ولماذا لا تكون السَّببيَّة ترابطًا مستمرًا؟

يمكن فهم النزوعيَّة أيضًا على أنَّها صيغة لنظريَّة الانتقال، لكن من غير اختزاليَّة؛ فبدلًا من القول: إنَّ الطاقة تُنقل، فإنَّ السَّببيَّة ستكون مرورًا للقوى؛ فالشيء الحارُّ لديه قوَّة الحرارة التي تمرُّ لتصل إلى الشيء، ثمّ تُسخِّنه. كما تُبيِّن النظرة النزوعيَّة سبب ميل السَّببيَّة إلى صناعة الفرق؛ فهي غالبًا ما تنتج تغيُّرات، مع أنَّنا لا نحتاجها دائمًا، لكن عندما تقوم السَّببيَّة بذلك، فهي ستنتج بصورة متكرِّرة تغيُّرات ما كانت لتحدث لولا ذلك.

obeikandi.com